المقياس : مستويات التحليل اللسانيّ

المحاضرة الأولى : مفهوم اللسانيات النشأة والتطور

نشأة اللسانيات على يد دي سوسير.

مقدّمــة :

جرت العادة بأن ننظر إلى مؤسّس اللّسانيات الحديثة ذات الطّابع العلميّ على أنّه فرديناند دي سوسير (1857-1913) فلقد اعتبر ف. دي سوسير (Ferdinand de Saussure) المؤسّس لهذا العلم الحديث الذي يتخذ اللّغة موضوعا له. وهذا الحكم التاريخيّ عامٌ ولكنّه مقبول إلى حدّ كبير في الأوساط العلميّة واللغويّة، وله دلالة بالغة من أنّ الدّرس العلميّ الحديث للّغة بدأ مع أعمال هذا الباحث، ومنه فلقد شكّل ف. دي سوسير علامة فارقة في تطوّر الدّرس اللّغويّ الإنسانيّ، كما يعتبر دي سوسير أوّل من وضع جهازا نظريّا عاما حول اللّغة، وعن كيفية دراستها، بشكل علميّ. وبفضل جهوده وأعماله وضعت الأسس لحركة علميّة فاعلة قادت بها اللسانياتُ البنويّةُ العلومَ الإنسانيّة قاطبة حتى أواسط 60.

ولكن في نهاية سنوات 1950 شهدنا ظهور النحو الصّوري بدافع من أعمال نعوم تشومسكي (Noam Chomsky)، وانطلاقا من نحوه التوليديّ التحويليّ، ثم تنوّع هذا التيّار ليعطي المزيد من النماذج الصّوريّة (أو الشّكليّة). وبالموازة مع هذا التّوسّع النظريّ القائم على فكرة الصّورنة (Formalisation) عرفت اللّسانيات في سنوات 1970 توسعا آخر مهمّا، تمثّل في دراسة المعنى ودراسة وظائف اللّغة، كما درست المشاكل المعرفيّة المرتبطة باللّغة، وازداد اتساع الدّرس اللغويّ، من الجملة إلى النصّ، ثم إلى الخطاب، كلّ هذا الجهود ساهمت في إغناء وإثراء الدّرس اللّسانيّ في القرن 20.

الأطر التاريخية والابستمولوجية للّسانيات السّوسوريّة

ظهرت اتجاهات فكريّة وفلسفية في أواخر القرن 19م ، تمتاز من جهة بنزعة عقلانيّة شديدة تماهيا من الفلسفة الغربيّة، وما وصل إليه العقل الغربيّ في حقول الفلسفة والمعرفة. وتنزع بعض تلك التوجّهات المتمحورة حول تحليل الظّواهر الاجتماعيّة والاقتصاديّة منحى اجتماعيا خاصّا، مفاده تقدّم المجتمع على الفرد، وأسبقيّة المؤسّسة من حيث الوجود على الشخص.

ومن أهمّ من مثّل هذه التوجّهات اجتماعيّا ولغويّا وفلسفيّا:

وليم دوايت ويتني (Whitney)، بدوان دو كورتناي (De courtenay)، نيكولاي كروزفسكي (Kruszweski)، من اللّسانين. ومن الفلاسفة و علماء الاجتماع : أ.كونت ، إ.دوركايم، ك. ماركس.

فعلى سبيل المثال فإنّ اللسانيّ الأمريكيّ و. د. ويتني (ت 1894) جاء بفكرة التواطؤ الاجتماعيّ فيما يخصّ الظّاهرة اللغويّة، وبفكرة : أنّ اللّغة نظام (Systeme) من الأصوات.

كما أوضح اللّسانيّ الفرنسيّ أنطوان مابيه (Antoine Meillet) فكرة أنّ اللّغة حدث اجتماعيّ بالدّرجة الأولى.

هذه بعض اسهامات اللّسانيّن في وضع إطار فكريّ تتموضع فيه اللسانيّة الحديثة لاحقًا، وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى مدرسة لسانيّة ساهمت في هذا الدّور و هي مدرسة لايبزيج (Leipzig)، ذات التوجّه الوضعيّ (Positivisme).

أمّا من غير اللّسانين فعندنا من الفلاسفة وعلماء الاجتماع أوغست كونت (Auguste Comte) صاحب مقولـة: "الإنسان الحقيقي لا وجود له وإنّما الوجود هو للإنسانيّة." وكارل ماركس (Karl Marx) القائل بمبدأ: "إنّ وجود الإنسان الاجتماعيّ هو الذي يسبب وعيه وليس العكس." وفي هذا السّياق نذكر إميل دوركايم (Émile Durkheim) الذي أكّد على أهمية العامل الاجتماعيّ.

كلّ هذا يؤكد على وجود خلفيات فكريّة وثقافيّة وأرضيّة مهيّئة –لحدّ كبير– إلى النقلة المعرفيّة في دراسة اللّغة على يد دي سوسير لاحقًا، ولكن نعود لنؤكّد أنّه على الأساس السّوسيري وحده قامت اللّسانيات الحديثة، وأنّ اللسانيات الحديثة التي نعرفها هي نتاج رؤية وبصيرة هذا العالم.

فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure)

ولد دي سوسير في جنيف (Genève) بسويسرا، لعائلة علم وفكر، درَس في جامعة لايبزغ وجامعة باريس، ثمّ درّس في أواخر حياته في جامعة جنيف.

وحسب الكثير من الدّلائل التاريخيّة والوقائع فإنّه في أواخر حياته وفي سنوات بعينها قدّم محاضرات في اللّسانيات العامّة (الحديثة)، وذلك حسب التوزيع الآتي :

المرّة الأولى : سنة 1907 م ، المرّة الثانيّة : 1908 – 1909م

و في المرّة الثالثة : 1910 – 1911م. وكانت تلك المحاضرات الشّفهيّة الملقاة على طلبته الأساس العلميّ للسانيات الحديثة (والبنويّة)، وبتلك المحاضرات تحدّدت مقاربة علميّة جديدة لأحد أهمّ العلوم الإنسانيّة وهو علم اللّغة.

جمع تلك المحاضرات تلميذان من تلاميذه، وهما شارل بالي (Charles Bally)، ألبرت سيشاي (Albert Sechehay)، ويتمّ طبعها، لتظهر عام 1916 م، في كتاب تحت عنوان فرنسيّ هو :

Cours de linguistique générale

أي محاضرات في اللّسانيّات (الألسنيّة) العامّة.

وسيترجم هذا السّفر إلى اللّغات الأوروبيّة بشكل بطيء، ولن يصل إلى اللّغة العربيّة إلاّ بعد 70 سنة (عام 1985)، وبترجمات متفاوتة الدقّة والأمانة. فلقد ترجمت تلك المحاضرات إلى الألمانية:1931، و الاسبانية:45 ،و الايطالية:67، والروسية:33 ، والانجليزية: 59 .

وعلى بطئ ترجمة المحاضرات فلقد كان هناك تأخّر في قبول أفكارها وبطئ في تقبّلها والأخذ بها، إذ وجدت أفكار دي سوسير التجاهل أحيانا والرفض أحيانا أخرى، ولم يتمّ قبولها وفهمها وتمثّلها إلاّ بعد سنوات، ويرجع هذا لأسباب عديدة.

اللّسانيات الحديثة (السّوسيريّة)

شكّلت فكرة "**علمنة**" المعارف، وجعلها أقرب إلى العلوم الدقيقة، المعتمدة على مبادئ الرياضيات ومبادئ العلوم الناضجة مثل الفيزياء شغلا شاغلا للعلماء والمفكرين، على اختلاف مشاربهم وعلومهم ومعارفهم، ومن البديهي أن أكثر هؤلاء من علماء العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة والنفسيّة واللغويّة. فهكذا تمنّى اللّسانيون وعلماء اللّغة أن يأتي يوم تدخل فيه اللّغة رحاب العلم وتتفيأ في ضلاله الوارفة، وتنعم بثماره : من يقين ودقّة ووضوح، وموضوعيّة ، وغير ذلك. ومن المرجّح أنّ هذا الأمل كان يحدو دي سوسير وغيره.

ومن المؤكّد أنّ علم اللّغة (أو اللّسان) (Linguistique / Linguistics) المنشود هذا سيكون حدّه – تقريبا – حدّ أندريه مارتينيه : "الدّراسة العلميّة للسان البشريّ ... ".

وهنا علينا أن نشير إلى أنّ لفظ "لسانيّات" في حدّ ذاته ظهر أوّل ما ظهر في ألمانيا، ثمّ بعده بقليل ظهر في فرنسا سنة 1826، ثمّ في انجلترا سنة 1855.

والمقصود بصفة "**العلميّة**" في هذا السياق الثقافيّ والحضاريّ التزام الدّرس (أو البحث) شروطا منها : الموضوعيّة، والابتعاد عن الذاتيّة، الشّمول، التزام المنهجيّة، التجريب، ...

ثنائيات دي سوسير:

على الرّغم من النّقد التي وجّه آنذاك (وبعضه ما زال) لأفكار دي سوسير فإنّ أفكاره شكّلت جهازا مفاهيميا كفيلا بإعطاء الكثير من التّفسير والوصف والتّعليل للظّاهرة اللغويّة. فدي سوسير – وبوحي نزعة علميّة صارمة – يؤكّد وبشدّة على أنّ اللّسانيات الحديثة تدرس اللّغة في حدّ ذاتها ومن أجل ذاتها، درسا علميّا واصفاً. كما نظر دي سوسير إلى اللّغة باعتبارها مؤسّسة اجتماعيّة تحكمها علاقات ذات طابع اجتماعي.

وإسهام دي سوسير يظهر في الكثير من عناصر علم اللسانيات الذي وضع أسسه، فيظهر في رؤيته للّغة وعلمها كما يظهر في الإطار الابستيمولوجي الذي تصوّره، ولكنّ أثره البارز ظهر أكثر في "**الثنائيّات**".

ثنائيّة اللّغة والكلام (La langue / La parole) :

يميّز دي سوسير ما بين هذه المفاهيم الآتية : اللغة، واللسان، والكلام. فالملاحظُ للظّاهرة اللغويّة الإنسانيّة، المتعمّق في دراستها سيكشف وجود كينونات لغويّة متمايزة، اكتشفها دي سوسير، ووضعها تحت الأسماء الآتيّة : Le langage , La langue , La parole .

Le langage (**اللّغة**) : ويعني بها دي سوسير الملَكَة اللغويّة المودعة في الدّماغ، التي يشترك فيها كلّ الناس، وبها يتميّزون عن بقيّة الكائنات الحيّة. وهذا الكائن اللغويّ (أي هذه الغريزة الفطرية التي تتحكم فيها بنية الإنسان الوراثية الفيزيولوجيّة) بداهة لا يدخل كموضوع في اللّسانيات (أي علم اللّغة)، فله علمه (أو علومه) الخاصّة به.

أمّـا La langue (**اللّسان**) فهو مجموعة القواعـد النحويّة (والقوانين الاجتماعيّة) المستقرّة بشكل تواضعيّ عند أفراد الجماعة اللغويّة : أو هو – كذلك – نظام من العلامات اللّغويّة أو قواعد، ناتجة عن الوضع الاجتماعيّ، ويعتبره دي سوسير الجزءَ الجوهريّ من الظّاهرة اللغويّة، وأنّه هو موضوع علم اللّغة أو علم اللّسان.

و La parole (**الكلام**) هو التحقيق الفرديّ للّغة، وهنا تظهر الظاهرة اللغوية في شكلها الاستعماليّ، لا في شكلها المعياريّ. وهذا الكيان (أو الكينونة) اللغويّة يستبعدها دي سوسير من علمه، نظرا لعدم استيفائها لمجموعة من الشروط (العلميّة) التي وضعها.

ونظرا لأهميّة هذين المفهومين، ولأهميّة التمييز بينهما نورد الجدول الآتي. ولا تظهر هذه الأهميّة عند دي سوسير فقط، بل عند غيره من اللّسانين ومن المدارس التي أتت بعده، مثل التداوليّة :

اللّغـــــــة	الكلام
مؤسّسة اجتماعيّة (المجتمع).	نشاط فرديّ (الفرد).
قواعد قائمة على التواضع الاجتماعيّ،	تجسيد فعليّ أو عمليّ لنظام اللغة.
اكتسبت قوة العرف الاجتماعيّ.	نتاج فرديّ لنظام اللغة.
نتاج اجتماعيّ لملكة اللغة.	الكلام مرتبط بإرادة الفرد.
اللغّة متموضعة خارج إرادة الفرد.	الكلام فعلٌ واع متعدّد، يوظّفه الفرد بحريّة

اللغة كائن يمكن دراسته بعيدا عن المستعملين.	لحاجته. الكلام خاضع للسيـــاق.

ثنائيّـــة الدّال و المدلول :

اللّغة نظام (Système) من العلامات اللغويّة الدّالّة. أي أنّ اللّغة، التي هي موضوع اللسانيات، عبارة عن نظام (أو نسق)، متكوّن من علامات لغويّة (Signe linguistique). و**العلامة اللغويّة** هي الوحدة الأساسيّة التي يتكوّن منها هذا النّظام، وهي ذات طبيعة مركّبة، إذ هي تتكون من اتحاد بين **دالّ** (Signifiant) و**مدلول** (Signifié)، فالدالّ هو الصّورة الصوتيّة، أمّا المدلول فهو المفهوم أو التصوّر الذي ترتبط به تلك الصّورة الصوتيّة. والعلاقة التي بين الدال والمدلول علاقة **اعتباطيّة** في أصلها، أخذت قوّة **العرف الاجتماعيّ**، لأنّ اللّغة مؤسّسة اجتماعية.

وفي هذا المقام من المهمّ أن نشير إلى أنّ دي سوسير سعى لإحداث قطيعة معرفيّة عميقة مع ما كان سائدا حول اللغة، من أنها شفّافة، أي "أنّ العلامة اللغويّة وضعت لتمثّل شيئا آخر" ، لذلك استبعد فكرة **المرجع** (Référent)، واقتصر درسه على ثنائية العلامة اللغويّة : الدّال والمدلول.

ثنائيّـة الآني (التزامنيّ) والزّمنـيّ (التعاقبيّ):

إنّ المقاربة التي أتى بها دي سوسير في دراسة اللّغة تقوم على منهج علميّ خاص هو المنهج **الوصفيّ التزامنيّ**. وهو منهج – حسب الظّاهر – يتعارض مع **المنهج التاريخيّ** القائم آنذاك.

فالدّراسة التزامنيّة أو الآنيّة (Synchronic) تدرس اللّسان في لحظة زمنيّة بعينها من الزّمان، وهذه الدّراسة تجسّد المنهج الوصفيّ في دراسة اللّسان.

أمّـا الدّراسة الزّمانيّة أو التعاقبيّة (Diachronic) فتدرس اللّسان عبر الزّمن، وعبر تعاقب الأزمنة، وعبر التّاريخ، فهي مقاربة تاريخيّة للّغة، وهذه الدراسة – بخلاف السّابقة – فتجسّد المنهج التاريخيّ.

إنّ القانون التّزامنيّ قانون كليّ يجمع ما بين عناصر اللّغة، فهو بذلك يشكّل كلاّ موحّدا، وبنية منتظمة، بينما يعتبر القانون الزّمنيّ قانونا خاصًّا، لا يكشف إلّا عن جزء من اللّغة، ويغفل عن حقائق جوهريّة في اللّغة، مثل أنّها نظام قائم على أبنيّة، وأنّها عناصر متفاعلة فيما بينها، تشكّل في النهاية مركّبا أو كلاّ يؤدّي وظيفة، هذه الوظيفة هي وظيفة اللّغة. ويقدّم دي سوسير في ذلك مثالا حسيّا ذا طبيعة تعليميّة، وهو مثال الدّارس لشجرةٍ : أتدرس حسب مقطع طوليّ لجذعها (درس زمنيّ)، أم تدرس حسب مقطع عرضيّ له (درس تزامنيّ).

ثنائيّة العلاقات التركيبيّة والاستبداليّة :

لقد اهتدى دي سوسير في ظل منهجه إلى تفريق حاسم حول العلامة وهي في حالتين من حالتها : حالتها وهي سلبيّة منعزلة، وحالة وهي ديناميّة داخل نظام دالّة، إلى محورين هما محور التركيب أو العلاقات التركيبيّة (Syntagmatique) ومحور الاستبدال أو العلاقات الاستبداليّة (Paradigmatique).

تظهر العلاقات الاستبداليّة (أو العموديّة) عند اختيار علامة لغويّة من مجموعة من العلامات اللّغويّة التي قد تحلّ محلّها (نظرا لوجود أمر ما مشترك بينها).

أمّـا العلاقات التركيبية (أو الأفقيّة) أو الخطيّة – أحيانا – كما يراها دي سوسير، فنلاحظها من خلال عدم إمكانية التلفّظ بعلامتين أو أكثر فتأتي هذه العلاقة لتنظم هذه العملية، وهي علاقة تمكّن العلامة اللّغويّة أن تتموضع عقب أخرى في السلسة الكلاميّة وفق علاقات التركيب، وبالنظر لعلاقة كلّ كلمة مع سابقتها أو لاحقتها تتحدّد قيمتها.

مراجــع عامّــة حول المقياس والمحاضرة :

المراجــع العربيّة :

فهم فرديناند دو سوسير وفقا لمخطوطاته، لويك دو بيكير، ترجمة ريما بركة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2015.

البحث عن فرديناند دي سوسير، ميشال أريفيه، ترجمة، محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009.

سوسير رائد علم اللغة الحديث، محمد حسن عبد العزيز، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990.

المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، مكتبة الآداب، القاهرة.

الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغويّة، أحمد عبد العزيز دراح، مكتبة الرشد، الرياض، السعوديّة.

أسئلة اللسان، إعداد وتقديم حافظ اسماعيلي علوي، وليد أحمد العناني، منشورات الاختلاف، الجزائر.

أسس علم اللغة العربيّة، محمود فهمي حجازي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة.

اتجاهات البحث اللسانيّ، ميكاإيفتش، ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

الاتجاهات الأساسيّة في علم اللغة، رومان ياكوبسون، المركز الثقافي المغربي، المغرب.

مبادئ اللسانيّات البنويّة، الطّيب دبّه، دار القصبة للنشر، الجزائر.

علم اللّغة بين القديم والحديث، عاطف مدكور، دار الثّقافة والنّشر والتوزيع، القاهرة.

مبادئ اللسانيات، أحمد محمّد قدور، دار الفكر، دمشق.

اللغة، محاضرات من إعداد و ترجمة : محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي، دار طوبقال للنشر، المغرب.

اللّسانيات (مترجم)، جان بيرو، دار الآفاق، الجزائر.

القاموس الموسوعيّ الجديد لعلوم اللّسان (مترجم)، أوزفالد ديكرو، جان ماري شايفر، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافيّ، المغرب.
الاتجاهات المعاصرة في تطور دراسة العلوم اللغويّة، أحمد عبد العزيز الدرّاج، مكتبة الرشد، م.ع. السعودية.
مدخل إلى المدارس اللّسانية، السعيد شنوقة، المكتبة الأزهريّة للتراث، القاهرة.
محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، أبحاث للترجمة والنشر والتوزيع، لبنان.
التفكير اللّسانيّ في الحضارة العربية، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، تونس.
مناهج علم اللغة (مترجم) بريجيته باتشت، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة.
عالم الفكر (الألسنيّة):المجلد:20-ع:03 ، ديسمبر 1989.
إطلالات على التعريفات اللّسانية والدّلاليّة في النصف الثاني من القرن 20، مختارات معرّبة (جزءان)، المجمع التونسيّ للعلوم والآداب والفنون، تونس.
اللّسانيات النشأة والتّطور، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر.
الألسنيّة والتحليل الوظيفيّ للّغة، ممدوح عبد الرحمان الرمالي، (بحث)، مصر.
أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، مصر.
مناهج علم اللغة من هرمان باول إلى نعوم تشومسكي، بريجيته بارتشت، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار. القاهرة، مصر.
مدخل لفهم اللسانيات، روبير مارتن، ترجمة عبد القادر المهيري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان.
مدخل إلى اللسانيات، محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد، ليبيا.
مدارس اللسانيات السابق والتطور، جفري سامسون، ترجمة محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، السعودية.
القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو وجون ماري سشايفر، ترجمة منذر العياشي، المركز الثقافي العربي.

المراجــع الأجنبيّة :

Cours de linguistique générale, Ferdinand de Saussure, publié par C. Bally et A. Séchehaye, avec la collaboration de Albert Riedlinger
critique préparée par Tullio de Mauro, Edition Payot, 1997.
Dictionnaire de linguistiques et des langage,Jean Dubois et autres, larousse.
The Linguistics Encyclepedia, Routledge, N.Y, U.S.A.